المقدمة

كان آدم سميث * يؤمن برحمة الله وحكمته وقدرته البالغة . كان ذلك المُنظر الكبير وصاحب نظرية السوق الحرة يؤمن بالعناية الإلهية . إن مؤلفه " [1] سعادة الجنس البشري " يبدو كأنه الهدف أو النموذج الأصلي الذي خطته يد الطبيعة وأنه غايتها ومقصدها . إن طاعة الله لا تكمن فقط في صفحات الكتب المقدسة أو في العبادات ولكن أيضاً في المعاملات اليومية المنطوية على عمليات البيع والشراء ذلك أن كل عملية شراء تحدث والتي تبدو كأنها نتيجة رغبة فردية محضة تكمن وراءها يد خفيه (Invisible hand [2]) يستحيل إدراكها وهي تحدد الأسعار والأجور وكذلك العرض والطلب وتتحكم في جماع الرغبات الإنسانية دونما تدخل للضمير الإنساني في ذلك . إن السوق الحرة تدعم الزراعة والصناعة وتخلق الثروة من خلال الأجور المدفوعة والمعبرة عن قيمة العمل وتؤكد على أن السلع التي تنتج هي فقط تلك التي يرغب الناس في شرائها . لقد شعر سميث إن البشر يفتقدون إلي الحكمة .. وبأن عليه أن يشجع الارتقاء بالجنس البشري من خلال بعض الخطط المحكمة . ولكن إذا سعي الإنسان فقط من أجل احتياجاته وأحسن تقدير ما يمكن أن يسبب له الألم [3] فإن هذه اليد الخفية سوف تضمن أن كل شخص يمكن أن يكون ذي نفع .

كان كتاب ثروة الأمم الصادر عام ١٧٧٦ ذو تأثير عميق على الأمم التي ولدت في ذلك التاريخ . إن الأفكار القائلة [4] بالحياة والحرية والسعي من أجل

* آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) فيلسوف اجتماعي وعالم اقتصاد اسكتلندي يعتبر مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي. المترجم .

الرفاهية هي حقوق لا يمكن نقل ملكيتها وهي ممنوحة من قبل الخالق ومتطابقة تماماً مع النظرية الاقتصادية لآدم سميث.

" الحياة والحرية وحرية الامتلاك " كانت هي الكلمات المأثورة لتوماس جيفرسون وكانت هي الإصلاحات التي وعد بها لتحقيق الاستقلال .الولايات المتحدة كانت أول بلد ينبذ الإقطاع والنظام الأرستقراطي واستبدلتهم بالإخلاص الشديد للجمهورية وقيم السوق الحرة . وبعد أكثر من قرنين من الزمن فإن الشركات الأمريكية الرائده مثل جنرال موتورز وجنرال اليكتريك واكسوموبيل ومايكروسوفت وألمرت وبوينج وغيرهم يفوق إجمالي دخلها السنوي دخل الكثير من البلدان المستقلة وليس هناك أي عمله متداولة أكثر قوة من الدولار الأمريكي كما أن سعر الإغلاق في وول ستريت يقود أسواق المال في طوكيو ولندن وباريس وفرانكفورت . إن الثروة غير المحدودة للولايات المتحدة مكنتها من بناء أكبر قوة عسكرية ضارية بلا منازع والآن لديها اقتصاد هو الأضخم من أي اقتصاد آخر يمكن للعين أن تراه هذا بالإضافة إلى الشركات الأمريكية ذات الأسماء الشهيرة والعلامات التجارية المعروفة ومع ذلك فقد أنتجت الأيدي الخفية اقتصاداً خفياً ضخماً وهو مخبأ بعناية وله متطلباته من العمالة ومستوى الطلب والسياسة السعريه كما أن له مناطقه .

" الأسود" " الظل" " غير العادي " " غير المنظم " " التحايلي" " الخفي " صفات عديدة استخدمت لوصف ذلك النوع من الاقتصاد . وبالرغم من أنه جرى تعريفة بالكثير من الطرق فإن الاقتصاد الأمريكي الخفي يمكن وصفه بأن يمثل الأنشطة الاقتصادية التي لا تتناولها التقارير بالرصد أو التسجيل أو المراقبة القانونية وتدور هذه الأنشطة على نطاق واسع بدأ بالأماكن المألوفة (المعاملات

الالكترونية والدفع نقداً وقد لا يتم تحويلة إلى مدخلات) وانتهاء بعالم الجريمة (كأن يقوم أحدهم ببيع المخدرات أو عقاقير الهلوسة) . كما تتضمن هذه الأنشطة الجمع بين وظيفتين وإصدار شيكات بدون رصيد والاتجار بالسلع المسروقة وتشغيل آلات للقمار في الشوارع والتهرب الضريبي والاستخدام المؤقت أو غير القانوني للعمال وعمالة الأطفال وإدارة المؤسسات التي تقوم على هذا النشاط وتقليد العلامات التجارية وتهريب التبغ والسلاح والمهاجرين غير الشرعيين وبيع المجلات والأقراص المدمجة الفاضحة .إن الاقتصاديين لا يعرفون بالضبط الحجم الحقيقي لهذا الاقتصاد الخفي (The Underground) ولا كيف يقيسون ذلك بعض الدراسات تربط بين الدخل الفعلي للفرد والذي يمكن أن تعبر عنه العائدات الضريبية وبين مقدار النقود التي ينفقها كما تقوم بعض الدراسات باختبار مقدار النقد وسرعة تداوله ومستوى استهلاك الكهرباء ولكل من هذه الدراسات مميزاته إلا أن كل ما قدمته من نتائج مشكوك فيه . وهناك إجماع عام على أمرين أولهما أن الاقتصاد الخفي الأمريكي كبير جداً وأن معظم نموه قد حدث في الثلاثين سنة الماضية . إن آية محاولة لتقدير حجم هذا الاقتصاد سوف تفتقد للدقة ذلك أنها ستسعى لمعرفة شيء يحرص الناس على إخفائه ولابد لأي دراسة لكي تكون جيدة أن تقدم مقياساً حساساً ونسب مئوية يمكن الاعتماد عليها . في عام ١٩٩٧ قدر الاقتصادي النمساوي [٥] فردريك شنيدر حجم اقتصاد الظل الأمريكي وذلك بحساب التغير في الطلب على النقد وبناء على دراسة شنيدر فإن حجم هذا الاقتصاد ويقدر بـ [٦] ٢,٦-٤,٦٪ من إجمالي الناتج القومي الأمريكي ويحلول عام ١٩٩٤ قدر [٧] بـ ٩,٤٪ أي ما يعادل ٦٥٠ مليار [٨] دولار. وبطريقة مختلفة أبلغ تشارلز رستي وهو مسئول اقتصادي ومدير مؤسسة مراقبة الدخل IRS الكونجرس أنه في السنوات الماضية أخفق

الأمريكيون في دفع٢٠٠ [٩] مليار دولار من الضرائب الفيدرالية وهو مبلغ يفوق ما تنفقه الحكومة على الصحة ويقدر هذا المبلغ بـ ١٤٪ من قيمة الضرائب الفيدرالية وهذا يعني أن الأمريكيين يتجاهلون الاعتراف ١,٥ تريليون دولار من متوسطات دخولهم هذا وقد تجاهلت المؤسسة الأرباح الناتجة عن الأنشطة الإجرامية.

هناك فترتان في تاريخ أمريكا الحديث وصمتا بازدهار اقتصاد الظل إبانهما في الفترة من ١٩٢٠- ١٩٣٣ أدى تحريم الخمور إلى انتشارها على نطاق واسع وارتفع معدل الجريمة وفي ذروة هذا التحريم انفق الأمريكيون حوالي ٥ مليار [١٠] دولار في العام على الكحول (حوالي ٥٤ مليار دولار بالأسعار الحالية) وتستحوذ هذه السوق السوداء على حوالي [١١] ٥ ٪ من إجمالي الناتج القومي الأمريكي في أيامنا هذه وعندما انتهى تحريم أو حظر الخمور أصبح العديد ممن كانوا يعملون بهذه التجارة رجال أعمال محترمون . في أثناء الحرب العالمية الثانية أدى غياب التحكم في أسعار السلع إلى خلق سوق سوداء كبيرة . إن النظام الذي تم تصميمه لضمان العدالة في توزيع السلع كانت له حتماً تأثيرات غير مقبولة كازدهار تجارة كتب لا تستند إلى مبادئ عقلية وكذلك أنشطة اقتصادية تعتمد على إخفاء معاملاتها . ويعتقد أن حوالي ٥٪ [١٢] من استهلاك الأمريكيين من البنزين و٢٠٪ من استهلاكهم من اللحوم قد بيعت بشكل مخالف للقانون وبناء على دراسة أجريت في نهاية الحرب فقد أخفق الأمريكيون في مراقبة حوالي ١٥٪ [١٣] من إجمالي دخلهم الشخصي . لقد تسبب اقتصاد الظل في التهام الرخاء الاقتصادي الذي تحقق أثناء فترة حكم ايزنهاور * - حيث زادت الأجور وانخفض معدل التهرب الضريبي ولم تعد هناك سلع تنتج بشكل غير قانوني ويمكن أن تجني من وراءها أرباح كتلك التي تتيحها تجارة الخمور - ولكن

* دوايت ديفيد ايزنهاور (١٨٩٠ - ١٩٨٩) جنرال أمريكي الرئيس الرابع والثلاثو للولايات المتحدة (١٩٥٣ - ١٩٦١) . المترجم .

خلال الفترة من منتصف الستينات وحتى نهايتها أخذ اقتصاد الظل في التنامي فقد أشار الاقتصاديون المحافظون إلى زيادة الضرائب والإسراف في الأنفاق الحكومي وبعض الإجراءات الائتمانية أما الليبراليون فكان رأيهم أن تخفيض الأجور والبطالة والأزمات الاقتصادية وانخفاض معدلات الاستثمار أثناء فترة حكم ريجان كانت هي المسئولة عن نمو اقتصاد الظل في هذه الفترة أما التفسيرات التي قدمها كل من اليمين واليسار فلم تكون حاسمة .إن الركود الاقتصادي يدفع الأمريكيين أياً كانت ثقافتهم إلي القيام بأية أعمال دونما تقيد بقوانين أو التزامات . إن ثقافة الهيبز Hippies التي ظهرت في الستينات والسلوك الرافض لدفع الضرائب في أواخر السبعينات خلقت مناخاً مناسباً لزيادة مشاعر البغض ضد الحكومة والتصدي لمؤسسات مراقبة الدخل كما أن ثقافة المخدرات جعلت الأجواء أكثر ملائمة لتنامي أنشطة الجريمة المنظمة . لم يكن النمو الملحوظ في اقتصاد الظل الأمريكي في الأعوام الثلاثين الماضية فقط نتيجة الأزمات الاقتصادية ولا الأنشطة غير المشروعة ولكن لتنامي مشاعر عدم الانتماء وألا مبالاة وعدم الاكترث بالقوانين.

وأثناء الحقبة ذاتها حدثت ظواهر مشابهه في الغرب الصناعي . فقد تنامي اقتصاد الظل في الاتحاد الأوربي حتى أنه اليوم يفوق نظيره في الولايات المتحدة وفي السنوات التي تكون فيها معدلات البطالة مرتفعة وكذلك معدلات جباية الضرائب والهجرة غير الشرعية بالإضافة إلى الإخفاق الكبير للحكومات في مكافحة مثل هذه الظواهر فإن ذلك يخلق اقتصاد ظل (سوق سوداء) غاية في الضخامة وبناء على دراسات فردريك [١٤] شنيدر فإن حجم اقتصاد الظل (السوق السوداء) يتراوح بين ١٢,٥٪ من الناتج القومي الإجمالي في بريطانيا العظمى و٢٧٪ من إجمالي الناتج القومي في إيطاليا أما الدول التي كانت تابعة

للاتحاد السوفيتي في السابق فإن لديها معدلات أكثر ارتفاعاً فيبلغ حجم السوق السوداء في استونيا [١٥] حوالي ٣٩٪ من الناتج القومي وفي روسيا ٤٥٪ وفي أوكرانيا ٥١٪ وفي بعض الأحيان قد يكون السوق السوداء هو القطاع الأكثر رواجاً في هذه الاقتصادات الآخذة في التحول والتي تمثل مناخاً مزدهراً للمغامرات ولكن على أي حال فإن ظاهرة السوق السوداء في الأقطار المتقدمة تعد خطوة للخلف ويرجع نموه في هذه الأقطار إلى تفشي الرشوة والتوزيع غير العادل للثروة وفي السنوات التي كان مندوبوا الحكومة وأعضاء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي يقومون على توزيع السلع والخدمات فإنهم كانوا يتخذون من ذلك مصدراً سرياً للربح . إن أكبر اقتصادات الظل (السوق السوداء) موجودة الآن في الدول النامية حيث الحكومات الفاسدة وتجاهل القوانين . في بوليفيا [١٦] يمثل اقتصاد الظل نحو ٦٥٪ من الناتج القومي الإجمالي وفي نيجريا يمثل حوالي ٧٥٪ .

والآن يعاني الدولار الأمريكي باعتباره العملة الدولية لاقتصاد السوق السوداء العالمي الجديد . منذ نهاية الستينات وبداية السبعينات لاحظ الاقتصاديون الأمريكيون أن كمية النقد التي تم تداولها تفوق بكثير تلك التي يتداولها المواطنون في أنشطتهم اليومية المعتادة وهذا يعزز الاعتقاد بأن السوق السوداء أخذه في النمو في الولايات المتحدة وبينما التقارير والنشرات الاقتصادية تشير إلى عودة أزمة السيولة والتعثر الاقتصادي فإن كمية النقد المتداول لم تتأثر كثيراً . الورقة النقدية من فئة ١٠٠ دولار أصبحت عملة السوق السوداء المفضلة ليس فقط في الولايات المتحدة ولكن أيضاً في أعالي البحار "شكراً لها على قيمتها المرتفعة والثبات العظيم للدولار" في أواخر السبعينات بلغ تدفق النقد خارج الولايات المتحدة حوالي ٢ مليار [١٧] دولار في السنة وحوالي ٢٠ مليار في التسعينات إن النقد الأمريكي يتم شحنة سنوياً إلى خارج البلاد وفي الوقت

الحالي فإن كل ورقة بقيمة ١٠٠ دولار [١٩] يتم تداول ثلاثة أرباعها خارج الولايات المتحدة.

إن تفوق الدولار في السوق السوداء العالمية قدم خدمة للاقتصاد الأمريكي ذلك أن الأموال المتدفقة خارج الولايات المتحدة هي في الحقيقة تخدم قروض غاية في الضخامة. وفي كل وقت تصدر الخزانة الأمريكية المزيد من البنكنوت وتشتري بما يعادل قيمتها سندات خزانه كانت قد إصداراتها من قبل. وهذه السندات تتحول إلى سيوله فقط عندما تسحب من التداول وتوضع في البنك. في عام ٢٠٠٠ ربحت الخزانة الأمريكية ما يعادل ٣٢,٧ [٢٠] مليار دولار من تعاملات في الأوراق المالية لبنوكها في أعالي البحار. في عام [٢١] ١٩٩٦ شعر الأمريكيون بالقلق بعد إصدار التصميم الجديد للورقة المالية من فئة ١٠٠ دولار من أن يتمكن المزورين في الشرق الأوسط من تقليدها و أن ذلك قد يزيد من إمكانية تداولها أو استخدامها بشكل مخالف للقوانين. إن المخاوف التي تبلورت أخيراً من الورقة ذات المائة دولار لا تأتي فقط من أعمال الجريمة المنظمة ولكن من البنك المركزي الأوربي ذلك أن الورقة المالية من فئة ٥٠٠ يورو تعمل باقتدار في أنشطة السوق السوداء حيث أن قيمتها تزيد عن خمسة أضعاف قيمة نظيرتها ذات الدولارات المئة وهي بذلك تساعد تجار المخدرات والمهربين على إخفاءها بسهوله وقد أوقفت البرتغال التعامل بها لهذه الأسباب ذلك أن استخدامها في أنشطة السوق السوداء لم يتم تحديده بعد.

وتلقي الفصول الثلاثة لهذا الكتاب الضوء على أهم أنشطة السوق السوداء الأمريكية (American underground) وكيف أنها أثرت في المجتمع الأمريكي سلباً أو إيجاباً.

✍ جنون المخدرات (Reefer Madness)

ويتناول هذا الفصل العواقب القانونية والاقتصاد به المترتبة على انتشار استخدام (تعاطي) المارجوانا (Marijuana) في الولايات المتحدة والتي شكلت سوقاً سوداء هو الأضخم في العالم ويعد أكبر أسواق المخدرات ضخامة وتضع الدولة القيود وتسن القوانين الفيدرالية لمراقبة إنتاجها ومعاقبة متعاطيها وتحظر زراعتها بشدة . فالأمريكيون ليسو فقط أكثر مدخني المارجوانا في العالم لكنهم الأكثر من بين غيرهم من أبناء الدول الصناعية تعرضاً لعقوبة السجن بسببها .

✍ في حقول الفراولة (In the strawberry fields) .

يتناول هذا الفصل وضع العمال المهاجرين في حقول كاليفورنيا وكلهم تقريباً مهاجرين غير قانونين وقد بدأت الدولة في منحي يقنن وجودهم في الولايات المتحدة . الكثير من أصحاب الأعمال الآن يفضلون التعامل في السوق السوداء للعمالة وبالرغم من أن تهريب المهاجرين يعد نشاطاً ضخماً ويحقق لمحترفيه مليارات الدولارات إلا أنها تلقي بالبلاد في أتون سوق سوداء ضخمة تؤثر في الأجور وظروف العمل وحتى الأداء الديموقراطي لدى أفراد المجتمع .

✍ إمبراطورية الفجور (An impire of obscene) .

يلقي هذا الفصل الضوء على تاريخ صناعة الجنس والإباحية من خلال أحد أباطرة هذه الصناعة وكيف أن هذه السلعة التي لا تروج إلا في السوق السوداء وهذا السلوك الذي كان يظن أنه مشيناً إلى تجارة ترفيهية منتشرة على نطاق واسع إن الأرباح التي تجني من مبيعات هذه التجارة والتي تستخدم في أعمال الجريمة المنظمة يقوم عليها الآن أكبر الشركات في الولايات المتحدة .أن تدفق

الطلب على الجنس والمارجوانا ينذر بخطر محدق فهاتان السلعتان يظهر لهما الأمريكيون كل البعض ولكنهم يكنون لهما كل الحب والهيام ويقبلون على شرائهما بشكل مدهش.

إن الارتباط بين هذه الأنشطة التي تناولتها الفصول الثلاثة للكتاب تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنه لاخلاص من هذه السوق السوداء طالما كانت هذه الأنشطة مترابطة ومنتشرة على نطاق واسع ويربطها مسار واحد ولا يمكن فصلها بشكل نهائي ولا يمكن لأحد أن يدعي فهم أياً منها بمعزل عن الآخر. إن الأتساع والتعقيد الذي يتسم بهما السوق السوداء يتحديان قدرات الرياضيين والاقتصاديين الكلاسيكيين وقد تبدو الأرقام الهائلة خادعة فالأسعار في وول ستريت ترتفع أو تنخفض بناء على التغيرات الضئيلة التي تحدث في معدل التضخم ومعدل البطالة وآخر التنبؤات بخصوص حجم الناتج القومي. إن مليارات الدولارات قد تتداولها الأيدي بناء على مقاييس اقتصادية لا تتجاوز العشر بالمئة ولكن ما معني هذه الحسابات لو أن ٢٠٪ أو ١٠٪ أو حتى ٥٪ من حجم اقتصاد الدولة لا يتم مراقبته أو أخذه في الاعتبار لقد نجح الاقتصاد الأمريكي الضخم في العقدين الماضيين في تكنولوجيا البرمجيات Software ولاتصالات وتكنولوجيا الفضاء والحواسيب إلا أن ذلك فقط لا يتعد كونه جزء من اللعبة فمارلبورو وكامل وفيليب موريس هي أسماء مشهورة في عالم التبغ وهي تشكل واحده من أقوي جماعات الضغط في العاصمة الأمريكية فالأمريكيين اليوم ينفقون المزيد من الأموال لا على التدخين بل على المخدرات.

القوانين الصارمة للدولة والمحددات الدقيقة للسوق الحرة هي الموضوعات الأساسية لهذا الكتاب. أن النظام السياسي للولايات المتحدة والنظام

الاقتصادي الذي اقترحه آدم سميث منوطان بتحقيق الحرية . فمنذ العام ١٧٧٦ والأمريكيون مستعدون للحرب بل والموت من أجل الحرية وأنه من العسير أن تجد أمريكيا واحداً يعتقد أن الحرية شيء سيئ ولكن السؤال الذي يجد صعوبة في الإجابة عليه هو الحرية لمن وهل يجب على الحكومة أن تحمي العمال أم أصحاب الأعمال . الصناع أم المستهلكين أن تترك الناس يعيشون كما يرغبون أو كما ترغب هي فباختصار يسهل علينا الاحتفال بالحرية ولكن يبدوا أنه من المستحيل الإخلاص لها بالرغم من أن دعاة الحرية يصرون على منحها لفئة فإن هذا يعني حرمان فئة أخرى منها . إن ما يحدث في اقتصاد السوق السوداء هو اختبار جدير بالاحترَم لأنه يعرفنا كيف يظهر سعداء الحظ وكيف يكون الإفلاس مصير آخرين وكيف ينظر القانون إلى شخص باعتباره قاطع طريق أو مجرم أو مديراً عاماً أو الاثنين معاً في آن واحد فلو أنك أردت أن تعرف شخصاً على حقيقته فإن عليك ألا تنظر إلى ما يبديه لك أو ما قد يبدو عليه ولكن عليك أن تنظر إلى شهاداته وكتبه على الأرفف وصور العائلة على مكتبة فقد تعرف المزيد مما هو مختفي وهناك دائماً المزيد وأكثر مما نتوقع معرفته . فلو أن السوق يتسع لكل ما يتمناه الناس فإن هذا يعني أن دور أولئك الذين يعملون في الخفاء سيكون بنفس أهمية ذلك الدور الذي يقوم به من يعملون في النور مثل الـ Yin الـ Yang والنشاط المشروع والسوق السوداء وكل منها يبدو وجهان لنفس العملة فلكي تعرف بلدا ما لا بد أن تراه ككل لا يتجزأ .